أثر الشخصيات التاريخية في الخطابة الوعظية

نور علي حسين

أ.د جبار عباس نعمة اللامي

جامعة ميسان/ كلية التربية / قسم اللغة العربية

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان الأثر الكبير الذي تتركه الشخصيات التاريخيه في النص الخطابي، لما تحمله هذه الشخصيات من أبعاد مهمه على المستوى الشخصي والعام، فما زلنا نتذكر الكثير من الشخصيات التاريخيه ونستمد منها الوعظ والعبرة، فضلاً عن إقناع المتلقي والتأثير فيه.

Abstract:

This research aims to show the great impact that historical figures leave in the rhetorical text, as these characters carry important dimensions on the personal and public level.

المقدمة

أنْ استدعاء الشخصيات يُعد وسيلة تعبيرٍ وإيحاء فهي ليست مجرد اسم لشخصية تراثية وأنما رمز لغوي يحمل ذكرى شعورية لكل الأفعال التي مارستها تلك الشخصية التراثية وعليه فعلى الأديب وقبل استحضاره لأي شخصية يجب أنْ يكون عارفاً بأحوالها وظروف تجاربها الخاصة، بوساطة مرجعيته الثقافية، ومن ثَمَّ يوظفها في نصّه بما ينسجمُ مع تجربتها على أن يكون هناك علاقة بين الشخصية المُستدعاة والنص الأدبي؛ لأنَّ إدراك المتلقي لنصه يتوقف على معرفته بتلك الشخصية المستدعاة وإمكانية تعيينه لها عبر السياق وعلى مدى قدرة الأديب في تقوية تلك المعرفة ودعمها [١] .

ومن أكثر الشخصيات استدعاءً في نتاج خطباء الوعظ شخصية الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) ولا سيما في خطب الشيعة وشخصية النبي آدم وعيسى (عليهما السلام) والخلفاء الأربعة.

ومن الجدير بالذكر كان استدعاء هذه الشخصيات أمّا بذكر أسم الشخصية، أو لقبها، أو ذكر صفه من صفاتها الملازمة لها.

وما زلنا نبحث في شخصيات التاريخ وأعلامِهِ التي سعى خطباء العصر الأموي إلى استحضارها وتوظيفِها في بِنية النّصِ الخطاب الوعظي، والتي تُضفي عليه عُمق الواقع المعيش، وتمنحُهُ القدرةَ على التأثير في مُدركات المتلقي الشعورية، ولعلَّ من الخُطب التي يستحقّ الوقوف عليها في هذا المبحث خطبة (زهير بن القين)* يوم عاشوراء لمّا كان يقاتل في صف الإمام الحُسين (عليه السلام) مخاطباً أهل الكوفة قائلاً **(يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار، إنَّ حقّاً على المُسلم نصيحة أخيه المُسلم، ونحنُ حتى الآن إخوة، وعلى دين واحدٍ وملةٍ واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيفُ، وأنتم امةٌ، إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذرية نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عُبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا بسوء، عُمْرَ سلطانهما كلِّه ليسملان* ويرفعانكم على جذور النخل ويقتلان أمثالكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عَديّ واصحابه، وهانيء بن عروة وأشباهه ...)** [٢] .

في مستهل الحديث أن (زهير بن القين) لم يكن في شكّ بأنَّ الذين هم في الموقع المقابل للإمام الحسين عليه السلام هم أهل الضلال والباطل والنفاق، وهو يعلم من هو يزيد وابن من ويعلم ما هي الصفات القبيحة واللئيمة المجتمعة في ذلك الشخص، الذي يحمل حقد آبائه وأجداده الذين أنزلهم الإسلام وأسقطهم عند زعامتهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وهنا أدرك زهير ان المسألة المتنازع عليها ليس مسألة من يحكم ومن لا يحكم أنما المسألة أصبحت متعلقة ببقاء الإسلام كدين والمسلمين كأمه واحدة، وهنا جاء الموقف المشرف لزهير، إذ أنه قرر الوقوف مع الإمام الحسين عليه السلام لانه كان مدركاً من هو الحسين عليه السلام ماذا يمثل عند الله عزّ وجلّ وفي الإسلام، فأغتنم تلك الفرصة، وقرر أن يكون إلى جانب الحسين عليه السلام دفاعاً عن الدين وعن الأمة التي يتحكم فيها الدعيّ بن الدعيّ يزيد بن معاوية، ولأن النصيحة من أهم مقومات المودة وأعظم لوازم النصيحة المحبة ولم تتم الأخوة مالم تكن النصيحة رائدها وباعثها، ولم يكن هذا الموقف يفوت زهير بل عمل يوم المعركة على إرشاد أولئك الضالين الخارجين لقتال الإمام (عليه السلام) لعلَّ كلامه وموعظته يؤثران فيهم ويردعهم عن غيّهم وضلالتهم فيعيدهم إلى جادة الحق والصواب [٣] .

نلمح أنّ الخطيب قد استفتح نصّهُ الخطابي المذكور آنفاً بأسُلوب النداء، الذي يفيد إثارة الانتباه مع الانذار، محاولاً أنْ يؤدي أثر التبليغ والإرشاد والإنذار لهذه الأمة المتهاوية، والنتيجة الكبرى لأفعال شيعة آل ابي سفيان السيئة والمخزية، وهي خروجهم لقتال ذرية النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة، وسبي نسائهم.

ولأن النصيحة سمة قرآنية حثَّ عليها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) لتثبيت الحُجة على الإنسان بعد قيامه بالفعل، لذا عمد ابن القين الى نُصْحِ طغاة بني أمية وبالغَ

في النصيحة فهو يرى ((أنّ القتال بين المسلمين يسقط العصمة فيسمى طرف منهم على دين آخر فما بالك بمن يقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهل يبقى له من إسلامه شيء)) [٤] .

وعليه فقد حذر ابن القين أهل الكوفة من مغبة إقدامهم على قتل الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفه ابن بنت النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا التحذير إنّما هو تنبيهٌ للغافل الذي لا يعرف شخصية الإمام الحُسين (عليه السلام)، ولأنَّ رابطة الإيمان تفرض عليهم الشعور بالأخوة، فيجب عليهم محاسبة أنفسهم قبل أنْ يتورطوا في قتل الإمام الحسين (عليه السلام) فتكون أمة قد خرجت من ربقة الإسلام.

ومن ثم دعاهم إلى نُصرة إبن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو أحقٌّ بالنُصرة من ابن معاوية، وهذه الدعوة قائمة على روابط فكرية مشتركة بوصفهم مسلمين يدينون بالإسلام وعليه فهم ملزمون بتطبيق أوامر هذه الشريعة وإلا كانوا عنها خارجين [٥] .

وبعد كُلَّ ما تقدّم به الخطيب في بداية خطبته من الإرشاد، والوعظ، والتحذير، والإنذار، والحث، على نصرة النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)، نلمح أنَّهُ قد عمد إلى تدعيم أقواله مستثمراً ثقافته التاريخية، ونقاوة فطرته، فضلاً عن نوع التربية والأخلاق التي يتحلّى بها، وعليه نلحظُ أنَّ الخطيب لجأ إلى استدعاء عدد من الشخصيات التي تنوعت ما بين الشخصيات الإيجابية ذات البعد الإيجابي والأثر الكبير في حياة الناس.

وأولى هذه الشخصيات المستحضرة هي شخصية الرسول الأعظم وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) وتلك الشخصية التي بُعثت رحمةً لجميع البشر، خاتم الانبياء والمرسلين، مُخرج الناس من الظلمات الى النور.

مذكراً بذريته وبحقهم علينا في محبتهم ونصرتهم وإكرامهم، وهنا استعانَ ابن القين بالأدلة العقلية القوية؛ لأنه عارف بحق النبي وآل بيته الأطهار (عليهم السلام) فوجد الخطيب في هذه الشخصيات تعليلاً مُقنعاً وحجةً يدافعُ بها عن أحقيّة الإمام الحسين (عليه السلام) ونُصرته.

وبعد ذلك يستدعي الخطيب شخصياتٍ أُخرى اشتهرت في التاريخ الإسلامي وكان لها اثرٌ في المجتمع، شخصيات عُرفت بتضحياتهم من أجل الإسلام.

استدعى الخطيب شخصية حجر بن عدي* وهاني بن عروة** متخذاً من هاتين الشخصيتين رموزاً لتذكير أهل الكوفة بفساد النظام الحاكم الذي يؤمنون به ويعترفون له بالسمع والطاعة، فالخطيب باستحضاره هذه الثُلة من الأخيار إنما أراد أنْ يستعرض الجرائم البشعة للنظام الحاكم، وان يثبت معلومة للزمن والأجيال والمتلقي؛ لانَّ قتلهم بصمة عار على حكومةَ تدّعي الإسلام شعاراً لها، وعليه فإن زهير بن القين استطاع أنْ يبين، بالأدلة والبراهين، ماذا فعل معاوية ومن بعدهُ بالإسلام والمسلمين.

وأستطاع الخطيب من تعرية شخصيات الطرف الآخر التي خلدها التاريخ في جانبها السلبي، إذ إنَّها مثّلت الوجه المظلم، والتي عرفت بظلمها وجبروتها وبطشها ومعارضتها ومحاربتها للإسلام، فضلاً عما

تحمله من دلالات الخسة والنذالة والكفر والفسوق والخيانة، وهي- بإجماع المسلمين- شخصيات أتخذت الإجرام والطغيان منهجاً لها .

ونلحظُ أنَّ الخطيب قد استقدم في نصِّه إحدى تلك الشخصيات التي مثَّلت الوجه المظلم ألا وهي شخصية عبيد الله بن زياد (لعنه الله) القاتل الذي قتل الإمام الحسين (عليه السلام) وحال بينه وبين ماء الفرات ليشرب منه هو واولاده ونساؤه، ومنعه أن ينصرف إلى بلده.

وكان هدف بن القين بإستقدامه لهذه الشخصية هو بيان الواقع الذي كان سائداً في ظلها من فساد وظلم ولرفع النقاب عنها وكشفها للعيان.

ويتضح لنا من جميع ما تقدم أنَّ الخطيب باستحضاره لهذه المجموعة من الشخصيات، وعقده مقارنة بين الإمام الحسين (عليه السلام) ونسبه وأصحابه وبين عبيد الله بن زياد (لعنه الله)، فما أكبر الفرق بينهما! فكان الغرض من هذه المقارنة هو توجيه القوم بالوعظ والإرشاد والنصيحة والتبصر بعاقبة ما يريدون الإقدام عليه من عمل وجاء هذا من باب تطبيق مبادئ الدين الإسلامي، فيرسم لنا زهير في خطابه صورة متجددة عبر الازمان تتجسد في الصورة التي اكد عليها الاسلام، وشرح معانيها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وهي واجب المسلم اتجاه أخيه من جهة، ومن جهة أخرى أراد أنْ يُبين أنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) أحقُّ بالودِّ والنصُرة من عبيد الله بن زياد (لعنه الله)، محاولاً بذلك إرشاد معسكر الضلال إلى طريق الحقِّ ورفع الغشاوة عن أبصارهم ليستفيقوا من غفلتهما إن كانوا غافلين أو تراجعوا عن ضلالتهم [٦].

وأخيراً يمكن القول إنَّ الخطيب قد وفّق إلى أن يسخر هذه المادة التاريخية المتمثلة بالشخصيات مع ما يتناسب والفكرة التي أراد التعبير عنها وهي الدفاع عن الإمام الحسين (عليه السلام) ونُصرتهِ.

ومن الخُطب التي تضمنت توظيف الشخصيات الدينية خطبة (عبيد الله بن عبد المري) الذي حمد الله فيها وأثنى عليه ثم قال: ((**أما بعد: فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على خلقه بنُبوَّته، وخصَّه بالفضل كُلِّهِ، وأعزَّكم بإتِّباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكة، وآمن به سُبلكم المَخُوفة ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فهل خلق ربكم في الأوَّلين والآخِرين أعظمَ حقَّاً على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله، ما كان ولا يكون، لله أنتم! ألم تَرَوْا ويبلغكم ما أجترُم إلى ابن بنت نبيكم؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حُرْمته، واستضعافهم وَحْدَتَه، وترمِيلهم إيّاه بالدم، وتَجْرَارِ هُمِوهُ على الأرض؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابتَه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم! اتخذوه للنّبلِ غرضاً، وغادروه للضياع جَزَراً، فللّه عيناً**

مَنْ رأى مثله! ولله حسين بن عليّ! ماذا غادروا به؟ ذا صِدْق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم، ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين ..... الخ)) [٧] .

إنَّ الخطبة جاءت على نهج التوضيح والإرشاد والدعوة الى الأخذ بثأر الإمام الحسين (عليه السلام)، يُبيِّن الخطيب فيها ان الله (عز وجل) أعلم حيث يجعل رسالته فلا يختار للنبوة إلا أصلح الناس لها، فاختار محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) على خلقه بنبوته، وخصه بالفضل كُلِّه، وانَّ أهلَ بيته (عليهم السلام) هم أحق الناس بالقيام مقامه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكما الانبياء وذريتهم صفوة الله كذلك ذرية الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) هم مصطفون ومخصوصون بالولاية.

ثم يتحدث الخطيب عن الإمام الحسين (عليه السلام)، وكيف خذله أهل الكوفة وجسارة القتلة على حرمة رسول الله وأهل بيته (عليهم السلام). ويركز الخطيب في المقطع الأخير من الخطبة على الطلب بدماء اهل البيت (عليهم السلام) وإلى جهاد الملحدين والمارقين؛ ولأنَّ الغرض من الخطبة التذكير والقصاص من قتلة الإمام الحسين (عليه السلام) فوجب على الخطيب الاعتماد على حجة قوية لأنهّا الأقدر على التعبير في مثل هذه المواقف الصعبة لهذا لجأ (عبيد الله) إلى استحضار شخصيات إسلامية مقدّسة لها أثرٌ في المجتمع الاسلامي سواء كان استحضار هذه الشخصيات بأسمائها أو رموزها أو صفاتها وأول شخصية يتطرق إليها الخطيب شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، التي تنوعت ما بين أستحضار للأسم الصريح (محمد)، او باللقب (النبي، الرسول)، ثم استحضاره لشخصية (الإمام علي، والإمام الحسين (عليهما السلام) وحاول مع كُلِّ شخصية منهما ان يستلهمَ ويستذكرَ ما اختصت به، فأشارَ إلى الإمام علي (عليه السلام) بذكر صفة من صفاته (أول المسلمين إسلاماً)، والى الإمام الحسين (عليه السلام) بالاسم الصريح (الحسين بن علي)، وبدلالة النسب كقربه من الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (ابن بنت نبيكم، وابن بنت رسول رب العالمين).

ومن الجو العام للخطبة نعتقد بأن الخطيب يحاول من هذه الاستدعاءات ان يستنهض الهمم ويشدّ العزائم عبر استقدامه لهذه الشخصيات المقدسة، وذلك لأجل أخذ القصاص من المسؤولين عن قتلة الإمام الحسين (عليه السلام) او المتواطئين معهم وإزاحة الأمويين من السلطة في الكوفة، والإلحاح في طلب التوبة [٨].

فقد وجب على جميع المسلمين نصرهم والدفاع عن حقّهم والمطالبة بثأرهم، وكان هذا ما يدعو إليه خطباء الشيعة ويلحون عليه [٩] . ومما لا شك فيه أنَّ هذا الاستحضار الثقافي يُفصحُ عن قدرة الخطيب الفنية في المواءمة بين الشخصيات المستدعاة بوصفها نسقاً دينياً وثقافياً.

واخيراً نلحظ أنَّ الخطيب يحضُّ ويحرّضُ دون ان يتخلى عن النزعة الدينية التي استأثرت بخطبته وارتبطت بها ارتباطاً.

وقد اتكأ الحسن البصري على استدعاء بعض الشخصيات التاريخية في بعض خطبه كخطبته في الزهد من الدنيا وعدم الإغترار بها قال: ((**يا بن آدم: بِعْ دنياك بآخرتك تَربصَهُمُا جميعاً، ولا تبعْ آخرتك بدنياك فتَخْسَرها جميعاً، يا بن آدم: إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهُم فيه، وإذا رأيتهم في الشَرّ فلا تغبطهم عليه، الثَّواء* ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمَّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمتكم، وقد أسرِعَ بخِياركم، فما تنتظرون؟ المعايَنَة؟ فكأنْ قَدْ. هيهات هيهات! ذهبت الدنيا بحاليها، وبقت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم. فيالها موعظة لو وافقت من قلوب حياةً! أمَا إنه والله لا أُمّةَ بعد أمتكم، ولا نبيَّ بعد نبيكم، ولا كتابَ بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظر بأولكم أن يَلْحَقه آخِرُكم، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنةً على لبنة، ولا قَصَبة على قصبة، رُفِعَ له عَلَمَ فشمَّر إليه، فالوحَاء الوحَاء** وَالنَّجَاءَ النجاءَ، علامَ تعرّجون؟ أُتيتُمْ وَرَبِّ الكعبة! قد أُسرع بخياركم: وأنتم كل يوم تَرْذُلون، فماذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على علم مِنه، إختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكَان صَفوْتَه من خَلْقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا مَوْضعاً ينظر إليه أهلُ الأرض .... الخ**)) (١٠)

الخطبة مثلُ الموعظة جميعها تتميز بكثرة الصيغ الاستفهامية، وقصر الفقرات، والمزاوجة بين الأسلوب الخبري والجملة الانشائية، ووفرة ادوات التوكيد والتكرار اللفظي، وعدم الربط بين الفقرات كل فقرة موعظة مستقلة بذاتها، والجمع بين التحذير والاغراء، والاثر الإسلامي فيها واضحٌ سواء كان من حيث الفكرة او الأسْلوب(١١).

إن الموضوع الرئيس الذي تدور حوله الخطبة هو ذمُّ الدنيا، وهي نقطة الانطلاق التي يصدر منها ويعود اليها، فيصف الدنيا بأنها متاع يباع لتشتري فيه الآخرة فالذي زهد في الدنيا في أمل الآخرة وعمل لها فإنه يكسب الدنيا والآخرة جميعاً، فتفكر في الدنيا فهي ليست أهلاً ان تبيع لها نفسك فعليك أنْ تكرم نفسك لهوان الدنيا فإنما الدنيا دار بلاء ومنزلة غفلة، اذن النقطة التي ينطلق فيها البصري في نصه الخطابي تقوم على تذكير الناس بحقيقة الموت الرهيب(١٢)، ويمضي الخطيب في خطبته على هذا النحو حتى نصل الى قوله: (**من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً .....**) وقوله: (**إنَّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه .....**)، وقوله: (**ولا نبي بعد نبيكم**) وقوله: (**ورسوله إلى عباده**).

بلا ادنى شك إن الخطيب استطاع التنبه إلى أهميه الأثر الذي تؤديه الشخصيات الدينية في ذكر الدلالة المطلوبة وبالتالي توظيفها لأجل إقناع المتلقي بالزهد في زخارف الدنيا وعدم الإغترار بها، ولهذا استحضر الخطيب شخصيةً دينيةً مقدَّسة لها أثر بالغ في نفوس الناس وعقولهم، ألا وهي شخصية خاتم الأنبياء والمرسَلين وحبيب قلوب العالمين أبي القاسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، المقترنة بالنبوة والرسالة والخُلُق والفعل والإيمان والتحدّي من دلالات (مادية ومعنوية) سامية تُعين على كشف ما آل اليه الواقع الذي يحيا بظله، فهو صاحب رسالة وهو المبلِّغُ عن الله سبحانه وتعالى، وهو رمزٌ من رموز الإنسانية وشخصية كبرى من شخصياتها التي غيّرت التاريخ.

فالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنموذجٌ فريدٌ لشخصية إسلامية إنسانية. وعند رصد آلية أستحضار الخطيب للشخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في نصّه الخطابي نجدها متنوعةً ما بين استحضار للاسم الصريح (محمد) أو باللقب (النبي) (الرسول)، فالخطيب تناص مع شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالخطيب هنا استحضر شخصية الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الشخص الموجود في الهرم الأعلى للكمال الإنساني من حيث النبوة والانسانية والزُّهد، وهو لم يختّر شخصية أخرى معروفة بالزهد وذلك لسببين اولهما- انه اراد التأثير المباشر بالمخاطب؛ لأن الرسول عَلَمٌ لا يحتاج الى مُعرّف، وثانيهما- خوف أو ضعف الخطيب من تناول شخصية أُخرى ربما لم يكن لها الوقع نفسه في نفوس المتلقين.

فالخطيب في توظيفه لشخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) استثمر الطاقة التعبيرية والفكرية لهذه الشخصية العظيمة فأسند اليه معناه الوعظي، فهو يحدس تماماً أنَّ الاتكاء على مثل هذه الشخصية يُفضي بالنص إلى قوة التأثير على المتلقي فقد أحسَّ الخطيب أنَّ إقناع الناس بالزُّهد في الدنيا يتطلبُ منه حجةً قويةً للتأثير بهم، وحرصاً منه عليهم، فجاء بشخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، التي تمنح الإحساس بالإيمان، وتمتلك قوةً دفعٍ كبيرةً لما تُقدِّمه من قيمٍ ساميةٍ ومُثُلٍ عُليا، فالخطيب بإستحضاره هذه الشخصية العظيمة أحسَّ أنّه أشدُّ حاجةً للعودة إلى نبع الإسلام الأولِ.

ويستدعي الخطيب شخصية تاريخية لها بصمات واضحة في الذاكرة العقلية للخطيب[١٣]، وهي شخصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بقوله: **(ولم تتهادوا للنصائح، قال ابن الخطاب (رحم الله أمرءاً أهدى إلينا مساوينا)**.

فالحسن البصري في مواعظه كان كثيراً ما يذكر الشخصيات التي يُقتدى بها من الرجال الصالحين فهو يستعيدُ دائما ذكر السلف الصالح الذين كانوا من شدّة ورعِهم أنّهم كانوا يزهدون فيما أحلَّ الله لهم من طيبات الحياة الدنيا [١٤] ، فكان يرى في مجتمع الصحابة الذي عرفه وامتلأت نفسه إعجاباً به المجتمع المثالي الذي ينبغي للمسلمين ان يستوحوهُ، سواءً في سلوكهم الشخصي أم في علاقاتهم الاجتماعية [١٥]

، ومن هنا كَثُرَ استدعاء الحسن البصري للرجال الّذين أدركهم الصحابة الذين لقيهم، وكان من بين هذه الشخصيات التي كان الحسن شديد الاعجاب وتأثر بها هو شخصية (عمر بن الخطاب)، فالخطيب عبر استدعائه لهذه الشخصية استطاع أختزال الكثير من الشرح المطول والقول المفصل، اذ ما أراد الحديث عن الحياة في عصر صدر الاسلام ومقارنتها بالحياة في العصر الاموي.

وفي خطبة اخرى (للحسن البصري) ينحو فيها هذا المنحى يقول: **((أيُّها الناسُ! عليكُمْ بالزَّهادَةِ في الدنيا، فقد رَوِيَ أن عيسى -عليه السلام- كان يقولُ: إدامي الجوعُ، وشِعاري الخوفُ، ولِباسي الصوفُ، واصْطِلائي في الشتاءِ الشمسُ، وَسِراجي القَمَرُ، وراحِلتَي رِجْلاي، وفاكِهَتي ما تُنْبِتُ الأرضُ، ويعلَمُ اللهُ أني أبيتُ ولا شيءَ لي، وأُصْبِحُ ولا شيءَ لي، وأحسَب أنَ ليس على الارضِ أغْنى مِنّي))** [١٦] .

فالخطيب يتحدث بالزهد في الدنيا، ومن الواضح أنَّ هذه القطعة لم يكن يتحدث فيها البصري إلّا عن فكرة واحدة متكررة وهي فكرة التزهيد في الدنيا، وعدم التعلّق بها، فالحسن البصري في حديثه عن الزهد يُحيلنا إلى شخصية النبي عيسى (عليه السلام) هذه الشخصية التي عُرف صاحبها بزهده وبأنه لم يكن يمتلك شيئاً من هذه الدنيا حتى يهتمَّ به أو يحزن عليه؛ لأنَّه على يقين أنَّ الدنيا سفر وارتحال، فلجأ البصري إلى استعارة دلالة الزّهد في الدنيا واليأس منها عبر استدعائه لشخصية النبي عيسى (عليه السلام)، ومن ثم يستحضر قولاً لسيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي (عليه السلام) في وصفه لزهد عيسى (عليه السلام) قائلا **((وإن شئت قلت في عيسى بن مريم فلقد كان يتوَّسدُ الحجر، .... الخ))** [١٧] .

فالبصري بعظته، ذكّر بالدنيا ثم استحضر شخصية هي أسوة في الزهد وثم اقتطع جزءاً من كلام أمير في وصف هذه الشخصية الزاهدة، فهو بعمله هذا إنما يُحيل الجمهور المتلقي الى استرجاع ما استقر في ذهنه من أحداث إيجابية ومنتفعاً من سياق ثقافته لأخذ العبرة والموعظة منها وبإيجاز لتتم عملية الاسترجاع الكُلي.

وهكذا نجح الخطيب في إيصال ما أراد إيصالهُ الى المتلقي من باب (خير الكلام ما قلّ ودلّ) عبر اتكائه على هذين المصدرين اللذين شكلا محوراً رئيس في نصّه الخطابي.

وفي خطبة أخرى للحسن البصري معرض حديثه فيها ان الله (عزَّ وجلَّ) سيحاسب كلَ إنسانٍ على أعماله يقول: **((أيُّها الناسُ! إنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- بسطَ لكمْ صَحِيفةً، وَكَّلَ بكُلِّ رجل منكمْ مَلَكَيْنِ، أحَدُهما عن اليمينِ، والآخرُ عن اليَسار، وهو تعالى رقيبٌ عليهما، فإنْ شاءَ قَلَّلَ، وإن شاءَ كَثَّرَ، إنَّما يُمْلي كتاباً ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ولقد رُوِيَ أنَّه لما نزلَ على رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، قال ابو بكر الصِّدِّيقُ- رضي الله عنه-: نزلتْ قاصِمَةُ الظُّهور، فإذا قال ذلكَ أبو بكرٍ،**

وَقد شُهِدَت لهُ بالجنةِ، فكيفَ يجب أن يكونَ قولُ مَنْ سِواهُ؟ فاعتبروا معشرَ المؤمنين –وكونوا على حَذرٍ؛ لعلكم تأْمنونَ من عذابِ يومٍ عظيمٍ)) [١٨] .

يستهلُّ الخطيبُ حديثَهُ بأن الله (عزَّ وجلَّ) جعل لكل انسان ملكين وكُلٌّ لهم كتابة أعمال ابن آدم من خير او شر، ملك عن اليمين وآخر عن الشمال. ومن ثم يعود الخطيب الى أكثر ينابيع الثقافة خصوبةً واتساعاً في التعبير فيعزز مقصده في غرضه عبر حضور النص الديني المقدس بلفظه ومعناه وهذا واضح فالمفردات القرآنية أحكمت سيطرتها داخل بنية النص الخطابي. ومن ثم يستحضر الخطيب في سياق حديثه شخصيتين لهما بصمات واضحة في ذاكرة الجمهور المتلقي.

أول تلك الشخصيات المستحضرة شخصية الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) التي حظيت بعمق المحبة والتبجيل من الادباء سواء كانوا شعراء او خطباء، فالحسن البصري في حديثه عن يوم الحساب وهو حدث عظيم تطلب منه استدعاء شخصية تناسب عظمة هذا الحدث وليس هناك أعظم من شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان الحاجة لهذا الاستدعاء نابعة من داخل البنية الخطابية وحتى يجعل متلقيه شديد الصلة بمضمونه الوعظي، لأنه شخصية الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، مُغْنية لمضمونه الوعظي، فضلاً عن أنَّ هذا الاستدعاء يؤمى إلى الصلة العميقة بين الخطيب ومكوناته الثقافية ولاسيما الدينية.

أما الشخصية الأُخرى المستحضرة هي شخصية الخليفة (أبي بكر) وهذا يؤكد لنا ما عرف به الحسن البصري بأنه كثير الاستشهاد بحكم الخلفاء وأقوالهم [١٩] .

فيعرج في خطبه على بعض الأقوال المأثورة ليتخذها بيّنةً على صدق ما يقول وما يذهب اليه.

فالحسن البصري بإستدعائه لتلك الشخصيات وتوظيف مدلولاتها في خدمة رسالة لتكون شاهداً حياً على تأثر البصري بتلك الشخصيات هذا من جهة آخرى هو يستعين بهذه الشخصيات ويلجأ اليها ويتوقف عندها من قبيل تأكيد انتمائه الديني ولتأكيد إيقاع أقواله لدى جمهوره [٢٠].

وفي خطبة (واصل بن عطاء) منزوعة الراء التي اتسمت بنزعته الوعظية والدينية والإرشادية معتمدةً على استدعاء شخصية الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي أستهلها بقوله: **((الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي على في دُنُوه، ودنا في عُلُوِّه، فلا يصوبه زمان، ولا يُحيط به مكان، ولا يؤوده حِفْظُ ما خلقَ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بلا أنشأه ابتداعاً، وَعَدَّله اصطناعاً، فأحسنَ كل شيءٍ خَلقه، وتمَّم مشيئته، وأوضح حِكْمته، فدل على أُلوهِيَّته، فسبحانه لا مُعَقِّبَ لحُكمه، ولا دافعَ لقضائه، تواضع كل شيءٍ لِعَظمته، وذلّ كُلُّ شيء لِسلطانه، ووسِع كلَّ شيء فضلُه، لا يَعْزب عنه مِثقالُ حَبة، وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إلهَ إلّا الله وحَدهُ، إلهاً تقَدَّست أسماؤُهُ، وَعَظُمت آلاؤُهُ، وعلى من صفات كل مخلوق، وتنزَّه عن شبيه كل مصفوع، فلا تبلُغه الأوهام، ولا تُحِيط به العقول ولا الافهام، يُعْصى فيحلُم، وَيُدْعي فيسمَع، ويقبل التوبة من عباده، ويَعْفُو عن السَّيئَّاتِ، وَيَعْلَم**

ما تفعلون، وأشهد شهادة حق، وقولَ صدق، بإخلاصِ نيَّة، وَحجَّة طَوِيه، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبين و الهدى ودين الحق، فبلغ مألُكته ...)) (٢١).

يبدأ الخطيب نصّه بحمد الله وتقديسه وبشهادة الوحدانية، ولأجل ان ينور بصائر المتلقين لجأ إلى استحضار شخصية خير البشر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا شَكَّ فيه إن واصل بن عطاء قد تنبه الى ((إن الاستهلال عند الشعراء والمتكلمين والخطباء في غاية الاهمية، فهو أول ما يلاطف الأذن ويستجلب الانتباه)) (٢٢) .

استعمل واصل معظم مهاراته الفنية وقابليته الفكرية بهدف إقناع المتلقي، فاستقدم شخصية الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بأسمها الصريح او عبر ذكر صفة من صفاتها، لأجل التأثير بالجمهور المتلقي بواسطة تحريك الجانب العاطفي فيهم.

إن هذا الأستحضار سواء أكان عن طريق الاسم الصريح (محمد) (صلى الله عليه وآله وسلم) او عبر ما أفاض بهّ صفات متتابعة تتابع الغيث المنهمر كما جاء في قوله: (عبده، نبيه، خالصته، صفيه) نلحظ ان هذه الصفات التي خلعها واصل على النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما هي إشارة إلى بلوغ النبي الأعظم الكمال في كلِّ صفةٍ على حدة وهذه الصفات بدورها، أفصحت عن التعظيم والتشريف لمقامه (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢٣) . فواصل باستحضاره لشخصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعلها في مستهل خطبته إنّما أراد بها أن يَمسَّ نفسية المتلقي بالدرجة الأولى ويجعله يقتنعُ بموضوع خطبته الذي يتجلى في الحثِّ على التقوى والتحذير من مفاتن الدنيا، وتصوير نهاية الأحياء، والتنويه بفضل القرآن الكريم؛ لأنّهُ الغاية الأولى من هذه الخطبة الوعظية هي اقناع المتلقي والتأثير فيه.

وهذا يؤكد لنا إمتلاك الخطيب خطةً مُحْكَمَةً في إقناع المتلقي بموضوعه، فهو باستقدامِهِ هذه الشخصية العظيمة إنَّما يومئ الى ادراكه الأثر الذي تؤديه؛ ولأنه عارف بمحبة المتلقين لنبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا ليس امراً عجيباً فهو السبب في شرفهم وعزهم وإنقاذهم فضلاً عن عصمته وكونه لا ينطقُ عن الهوى **﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾** (٢٤) .

وخلاصة القول إنّ الخطيب قد يلجأ الى وسائلَ عدةٍ. بهدفُ إلى إقناع الجمهور المتلقي وقد اختلفت هذه الوسائل وكان من بينها إستحضاره لأكثر الشخصيات تأثيراً في المتلقي الا وهو رسول الانسانية الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، ليخرجَهم من الظُلمات إلى النور.

ومن الخطب التي تضمن توظيف الشخصيات الدينية خطبة (عمر بن عبد العزيز)، بعد إن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال: **((أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَفُ من كل شيء، وليس من تقوى الله ﷻ خَلَفٌ، واعملوا لآخرتكم، فإنهُ مَن عَمِلَ لآخرتهِ كفاه**

الله تبارك وتعالى أمرَ دنياه، وأصلِحُوا سرائركم، يُصْلح الله الكريم عَلانيتكم، وأكثِروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم، فإنهُ هادِمُ اللذات، وإن من لا يذكر من آبائهِ فيما بينه وبين آدم (عليه السلام) أباً حَيَّاً لمُعْرق في الموت .... الخ)) [٢٥] .

يبدأ النص بأسلوب النداء التوجيهي العام، ومن ثَمَّ بفعل الأمر (أصلحوا) فمعانِ النص تدور في فلك مركزه الإصلاح، فبصلاح السريرة تصلح العلانية؛ لأنَّ السريرة إذا صلحت صلح شأن العبد كُلِّه، فالعبرة بصلاح السريرة لا بصلاح الظاهر؛ لأنَّ الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى إنما تحصل التقوى بما يقع في القلب.

وعليه فلا صلاحَ حقيقي للعلانية دون صلاح السريرة، وبما أنَّ عامة الناس شديدة الحرص على صلاح حياتهم التي فيها معاشهم، فلا صلاح للدنيا دون إصلاح الآخرة عبر الالتزام بتعاليم الدين الحنيف والوقوف عند حدوده. إن صلاح الدنيا والعلانية هي ليست النتيجة الأخيرة التي يحصل عليها المصلح لأمره؛ لأنه هناك موت بعده آخرة يُحاسب الانسان على أعماله. ويشير الخطيب إلى جوهر الإنسان الذي يركز على صلاحه إذا ما صلح المظهر العام وعدم الاكتفاء بإصلاح الثاني دون الأول، ثم يختم الخطيب خطبته بالموت فكان مناسباً لكونه خاتمة الحياة الدنيا والذي قضى على الإنسان منذ آدم (عليه السلام) حتى اليوم فيراه خير واعظ [٢٦]. بقوله: (وإن امرءاً ليس بينه وبين آدم أب لمعرق في الموت).

نلحظُ أنَّ الخطيب في هذه العبارة استحضر شخصية دينية تاريخية ألا وهي شخصية (النبي آدم) (عليه السلام)، وهو ابو البشر يمثل في الحقيقة بداية الخلق البشري. إنَّ الإنسان عريقٌ في الموت، أجداده ماتوا وآبائه ماتوا فهو معرق بالموت الذي يفنى كل انسان وآدم سلسلة طويلة من الأموات فعليه العظة والعبرة من إحاطة الموت الذي يدعو البشر لسلوك الرشد والأخلاق والجادة الصحيحة، ولعلّ هذا المعنى أصبح من المعاني الشائعة في كُلّ من المدونة الشعرية والنثرية.

وخلاصة القول إنّ الخطيب استعان في خطبته بشخصية معروفة دينياً وتاريخياً، تمتلك طاقة هائلة للتأثير بالمتلقي؛ لأن المتلقي على يقين أنّ آدم (عليه السلام) هو أول من خلقه الله من البشر وأول إنسان على سطح المعمورة خلقه الله (عز وجل)، فالخطيب باستحضاره لهذه الشخصية يحاول تذكير المتلقي بالموت وهي فكرة شغلت الخطيب وهيمنت على فكره وعاطفته، فقد جعل عمر بن عبد العزيز يؤكد دعوته التي تقوم على تذكير الناس بحقيقة الموت وربطها بشخصية النبي آدم (عليه السلام) وما فعل الخطيب ذلك إلا لِيَحُوْلَ بين الفرد والانحراف في تيار الحياة ومتاعها.

وخطب عبد الملك بن مروان يوماً في أهل المدينة، فقال: **((يا أهل المدينة إن أحق الناس أن يلزم الأمر الأول لأنتم، وقد سالت علينا أحاديث من قِبل هذا المشرق لا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة**

القرآن، فالزموا ما في مصحفكم الذي جمعكم عليه إمامُكم المظلوم، رحمه الله، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله، فإنه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المستشير كان للإسلام، رحمه الله، فاحكما ما أحكما وأسقطا ما شذَّ عنهما)) (٢٧)

يبدأ الخطيب نصه مخاطباً أهل المدينة، وبأنهم أحق الناس بالالتزام بسيرة السالف الصالح، أما بالنسبة إلى الأحاديث التي يتداولها الناس والتي تذم المروانيين وتنهش بهم، فهي بعيدة عنهم لا يعرفونها ولا يعترفون بها، فهم لا يعرفون إلا القرآن الكريم وتلاوته.

وبعد هذه المقدمة يتحول الخطيب إلى وعظهم فيدعوهم إلى الالتزام بالقرآن الكريم الذي جمعه الإمام المظلوم ويريد به الخليفة (عثمان بن عفان)* ومن ثَمّ يدعوهم إلى التمسك بالفرائض التي سنها عثمان لهم ويكرر نعته بالإمام المظلوم، تلك الفرائض التي كان يستشير بها زيد بن ثابت ونعم المستشير، وعليه فانه أوامر عثمان ونواهيه لم تكن بعيدة عن الدين، انما هي في صلبه.

فيحاول الخطيب في هذا النص خطابي إسكات أهل المدينة والرد عليهم واستنكاره لهم باختلاقهم للاحاديث التي تذم المروانيين، فتكلم بوصفه فقيهاً واعظاً.

ما استحضر في التاريخ شخصيتين دينيتين تاريخيتين، وأولى تلك الشخصيات المستدعاة هي شخصية الخليفة الثالث (عثمان بن عفان)، فلم يكن استحضاره لهذه الشخصية بالاسم الصريح وإنما جاء عبر ذكر صفة من صفاته إلا وهي (الإمام المظلوم).

داعياً أهل المدينة إلى الالتزام بقراءة القرآن الذي جمعه (عثمان بن عفان) في مصحف واحد، بسبب اختلاف اللغات، وثم يأمرهم بإداء الفرائض التي جمعها لكم (الإمام المظلوم)، ولإحداث التأثير المرجو على المستمعين ولإقناعهم بذلك، يلجأُ عبد الملك بن مروان إلى استحضار شخصية دينية عرفت بكاتب الوحي وأحد من جمع القرآن الكريم ومتقن الفرائض إلا وهي شخصية الصحابي الجليل (زيد بن ثابت)* فالخطيب فَزِعِ إلى هذه الشخصية حتى يؤكد للسامعين بأن كُلّ أوامر عثمان ونواهيه لم تكن بعيدة عن الدين الإسلامي.

ولكي يثبت صحة كلامه عنه (عثمان بن عفان) ونحسب أن أختيار هاتين الشخصيتين أختيار موفقٌ، يكشف لنا أنَّ الخطيب كان على معرفة تامة بملامح تلك الشخصيات المستدعاة، وأبعادها الدلالية، فدفعه ذلك للمقابلة بين الأحداث التي يعيشها، فقد وجد الخطيب في هاتين الشخصيتين تعليلاً مقنعاً، وحجة يدافع بها عن ماله أمام الآخرين بكل فخرٍ وأعتزازٍ، ووصف نفسه بالتدين والعفة والنزاهة واقتدائه بالسُّنة الشريفة، والملاحظة أن الخطيب كرر نعت (الإمام المظلوم)، ليؤكد للمتلقين الظلم الذي طال هذه الشخصية، وكأنه يتهمهم بظلمه ولأنه عارف برأيهم به وبعثمان.

ومن امثلة ذلك ما نجده في خطبة (صالح بن مسرح)* **﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ اللهمْ إنَّا لا نَعْدِل بك، ولا نَحْفِد إلا إليك، ولا نَعبْد إلّا إيَّاك، لك الخَلْق والأمر، ومنك النَّفع والضَّر، وإليك المصير، ونَشهد أنّ محمَّداً عبدُك، الَّذي اصطفيتَه، ورسولُك الَّذي اخْتَرْتَه وارتضيتْه لتبليغ رسالاتك، ونصيحة عبادك، ونَشهَد أنَّه قد بلْغ الرسالة، ونَصَح للأمَّة، ودعا إلى الحقّ، وقام بالقِسْط، ونصر الدّين، وجاهد المشركين، حتَّى توَّفاه الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصيكم بتقوى الله والزّهد في الدنيا، والرّغبة في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراقِ الفاسقين، وحبّ المؤمنين، فإنّ الزَّهادة في الدنيا تُرغِّب العبدَ فيما عند الله، وتُفرّغ بدنَه لطاعة الله، وإنّ كثرة من ذكر الموت تُضيف العبد من ربِّه حتى يَجأر إليه، ويستكين له، وإن فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين، قال الله في كتابه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .وإن حُبّ المؤمنين للسّبب الذي تُنال به كرامة الله ورحمته وجنَّتُه، جعلنا الله وإيَّاكم من الصادقين الصابرين. ألا إنّ من نعمة الله على المؤمنين ان بعث فيهم رسولاً من أنفسِهم فعلَّمهم الكتابَ والحكمة وزكَّاهم وطهرهم ووفقهم في دينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، حتى قبضه الله، صلوات الله عليه، ثم ولى الأمر من بعده التقيَّ الصّديق على الرّضا من المسلمين، فاقتدى بِهديه، واستسن بسُنَته، حتى لحق بالله –رحمه الله – وأستخلف عَمر، فوَلاه الله أمر هذه الرعية، فعمل بكتاب الله وأحيا سُنة رسولِ الله، ولم يُخنِقْ في الحقّ على جرَّته ولم يضيفْ في الله لومة لائم، حتى لَحقَ به رحمةُ الله عليه، وولَى المسلمين من بعده عثمان، فاستأثر بالفَيء، وعَطّل الحُدود، وجارَ في الحُكْم، واستَذل المؤمن، وعزّز المجرِم، فسار إليه المسلمون فقتلوه، فبريء الله منه رسولُه وصالحُ المؤمنين؛ وولَى أمر الناس من بعده عليّ بن ابي طالب، ... الخ))** [٢٨]

القراءة الأولية تشير إلى أن هذه الخطبة مزيج بين السياسة والوعظ، كخطب الحزب الأموي، فالزهد في الدنيا ومتاعها من الأفكار المقررة في خُطب الخوارج، وان الاستخفاف بالموت والترحيب بلقائه ناجم عن الزهد في الحياة الدنيا [٢٩] .

استهل الخطيب خطبته بحمد الله وتعظيمه منوهاً بفضائله وخلقه الذي أبدع الخلق ابداعاً، والشهادة بأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول الله الذي اختاره الله سبحانه وتعالى، وبلغ رسالته ونصح للأمة، ودعا الى الحق وقام بالقسط.

وفي المقطع الثاني من خطبته يوصي الخطيب بالعودة الى تقوى الله (ﷻ)؛ لأنها تُبصِّرُ الناس بعواقب الأمور وهي التي تحول بين الناس والسقوط في الكبار، وبإنصراف النفس عن طلب الدنيا والرغبة في متاعها، وعدم التعلّق بها، وطلب الآخرة، والرغبة في نعيمها، ويحذر من الركون إلى الدنيا وكثرة ذكر الموت ويزهدهم بالدنيا لأنها دار فناء لا تدوم على حال.

نلحظ أن الخطيب يستحضر في نصّه الخطابي شخصيات عدّة دينية وتاريخية.

وأول الشخصيات المستحضرة في نصه شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)التي شكلت محوراً هاماً منذ بداية الدعوة الإسلامية، فضلاً عن إن الخوارج يرون أن عدل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصاياه بالخير لم يعمل بها بعده إلا في زمن ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب [٣٠] .

فالخطيب يرى في استحضاره لشخصية الرسول الأعظم ضرورة مُلحَّة لبيان ما آلت اليه الأمة من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) وبغية التأثير في نفوس المتلقين لما لشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مكانة مقدسة في نفوس السامعين.

ومن ثَمَّ يستحضر الخطيب شخصيات الخلفاء الأربعة وحسب تسلسل التاريخي في خطبته مع بيان وجهة نظره حولهم، نعتقد ان الخطيب يحاول عبر هذا الاستدعاء أنْ يستنهضُ الهمم ويشدّ العزائم لأجل تحقيق الاهداف التي يروم الوصول اليها ولكن الخطيب بإستحضاره لهذه الشخصيات وبهذا الحشد المكثف والسرد المفصل مع إبداء رأيه عن كُلِّ شخصية من هذه الشخصيات قد أخرج النص الخطابي عن روح الإبداع الفنّي، فأصبح ذلك الاستحضار حشواً، وحشراً أفقد الخطيب القدرة على توافر الزخم الدلالي لنصِّه الخطابي.

ولا يفوتنا أنْ نُنوهَ بأنَّ الخوارج كانوا يمزجون خطاباتهم السياسية بالدعوة إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وما عند الله من الثواب، ويثنون على أبي بكر وعمر [٣١] وخير دليل على ذلك خطبة صالح بن مسرح، وعبر استقراء نتاج خطباء الوعظ نلحظ شيوع توظيف الشخصيات التاريخية واستحضارها داخل النص الخطابي[٣٢] تكشف عن العلاقة بين الخطيب ومرجعيته التأريخية.

الخاتمة

ان خطباء الوعظ في العصر الأموي أستثمروا ثقافتهم التاريخيه، فا الخطيب باستحضاره لشخصية تاريخيه لا يسعى إلى ذكر الشخصية بقدر ما يسعى إلى استلهام دلالاتها ورمزيتها؛ لغرض التأثير وإقناع الجمهور المتلقي، متخذين منها وسيلة من وسائل الإقناع والتأثير، وقد تنوعت أليات توظيف الشخصيات ما بين توظيف الاسم المباشرللشخصية أو اللقب.

هوامش البحث

(١) ينظر: استيحاء التراث في الشعر الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين" ٤٠٠- ٥٣٩هـ: ابراهيم منصور محمد الياسين (اطروحة دكتوراه): كلية الآداب- جامعة اليرموك- العراق: ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م: ١٦٩، ١٧٠.

* زهير بن القين بن قيس الانماري البجلي، اسم يضيء سماء لطف تألقاً وجمالاً، له صدى يفتح القلوب ويريح النفوس، كان معروف في قومه بالأخلاق الحسنة والشجاعة والفصاحة والمنطق والحوار، من الخطباء الفحول، كان على ميمنة الإمام الحُسين (عليه السلام) عرف بحسن القيادة والمقاتلة ولا نجده إلّا في المقدمة في الحوادث الكبار قولاً وعملاً، ينظر: جُمل من أنساب الاشراف: للإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (٢٧٩هـ): تحقيق: د- سهيل زكّار، د- رياض زركلي: ٣٧٨، ٣٧٩، ويُنظر: كتاب الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: الشيخ المفيد الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٣٦- ٤١٣هـ): تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث: ٢: ٩٥، وينظر: فرسان الهيجاء في تراجم أصحاب سيد الشهداء (عليه السلام): الشيخ ذبيح الله المحلاتي: ١: ١٩١.

* سمل عينه: فقأها بحديدة محماة، ينظر: لسان العرب: ابن منظور: ٧: ٢٦٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: بن جرير الطبري: ٥: ٤٢٦، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت: ٢: ٤٦، مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) أو حديث كربلاء: عبد الرزاق المقرّم: قدم له: محمد حسين المقرم: ٢٣١.

(٣) ينظر: مواقف وصفات الأصحاب في كربلاء: شبكة المعارف الإسلامية: ١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢: بحث.

(٤)اساليب الحِجاج في خُطب معركة الطف: د- محسن تركي عطية الزبيدي: مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الانسانية- كربلاء المقدسة- العراق: العدد ٢٥: السنة الثالثة عشر: ٢٠١٩: ٤٩(بحث).

(٥) ينظر: ثورة المثقف دراسة تحليلية في سيرة زهير بن القين ومواقفه مع الحسين (عليه السلام): د- وسام حسين جاسم: مجلة الإصلاح الحسيني: مؤسسة وارث الانبياء للدراسات التخصصية النهضة الحسينية- العراق: العدد الرابع عشر: مقال.

* حجر بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث .... الكندي، وهو حِجْر الخير، وأبوه عدي الأدبر طُعِن مولياً فسمي الأدبر، وكان حجر جاهلياً إسلامياً، وشهد حجر القادسية وهو الذي افتتح (مرج عذرى) كان من أصحاب الإمام علي (عليه السلام) شَهِدَ معه الجَمل وصفّين، وكان يرأس قبيلته في كل المعارك، قتله معاوية بن أبي سفيان بعد أنْ أمره بالبراءة من الإمام علي (عليه السلام) فأبى ذلك فقتله هو وأصحابه عند عذراء وهي من قرى غوطة دمشق تقع في الشمال الشرقي منها، ودفع كل رجل منهم الى رجل من أهل الشام ليقتله، ودفع حجر إلى رجل من حمير فقدمه ليقتله فقال: يا هؤلاء دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فتوضأ وصلى ركعتين فطول، فقيل له: طولت أجزعت؟ فقال ما صليت صلاة أخفّ منها ولئن جَزِعت لقد رايتُ سيفاً مشهوراً، وقبراً محفوراً، ينظر: الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد: دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا: دار الكتب العلمية – بيروت: الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م:٦ : ٢٤٦: ٢٤٧، وينظر: المصَبَّر: للعلامة الأخباري النسابة أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (٢٤٥هـ): تصحيح: د- ايلزة ليختن شنتيتر: مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية: د- ط: ١٣٦١هـ-١٩٤٢م: ٢٩٢، ويُنظر: الغارات: لأبي اسحق ابراهيم محمد الثقفي الكوفي (٢٨٣هـ): تحقيق السيد جلال الدين المحدث: د-ط: د-ت: ١: ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، وينظر: المستدرك على الصحيحين: الإمام الحافظ ابو عبد الله الحاكم النيسابوري: دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: ٣: ٥٣١، ٥٣٢، وينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي: ٣: ٤٦٥.

[**] هاني بن عروة بن الفضفاض بن عمران الغطيفي المرادي، أحد سادات الكوفة وأشرفها وأعيان الشيعة، أدرك النبي محمداً (ﷺ) وتشرف بصحبته، كان عبيد الله بن زياد أمير البصرة والكوفة يبالغ في إكرامه إلى انْ بلغه أنْ مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين (عليه السلام) مختبئ عنده فدعا لهانيء وقال له: ادنُ مني فأدنوه منه فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته وكسر القضيب على وجهه ورأسه، حبسه ثم قتله، وصلبه بسوق الكوفة، وكان يوم قتل ابن تسع وثمانين سنة، يُنظر: مروج الذهب ومعادن الجواهر: ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: ٢: ٢٩٩، ويُنظر: مقتل الحسين (عليه السلام) المسمى باللهوف في قتلى الطفوف: محمد بن طاووس الحسيني: ٣١ وما بعدها، وينظر: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين: الزركلي: ٦٨، ويُنظر: أنصار الحسين والثورة والثوار: السيد محمد علي الحلو: إصدار شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية- العتبة الحسينية المقدسة- العراق- كربلاء: ٢٩٧.

(٦) ينظر : التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية (من مكة الى المدينة) :هادي سعدون هنون (رسالة ماجستير) : جامعة الكوفة – كلية الآداب : ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م: ٣٩.

(٧) تاريخ الطبري: لابي جعفر محمد بن جرير الطبري: ٥: ٥٥٩، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت: ٢: ٥٥.

(٨) ينظر: تاريخ ثورة التوابين الأهداف والنتائج: الشيخ طليع حمدان: مجلة بقية الله: العدد: ١٥٩: ١٤٤٣هـ- ٢٠٢١م.

(٩) ينظر: الخطابة في عصرها الذهبي: إحسان النص: ١٦٨.

[*] طول المقام، ينظر: لسان العرب: لابن منظور: ٣: ٥٦.

[**] العجلة والأسراع، ينظر: لسان العرب: لابن منظور: ٥: ١٥: ١٧٢.

(١٠) البيان والتبيين: للجاحظ: ٣: ١٣٢، ١٣٣، وجمهرة خُطب العرب في عصور العربية الزاهرة : أحمد زكي صفوت: ٢: ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧.

(١١) ينظر: الحسن البصري إمام الزاهدين شخصيته، عقيدته، زهدهُ، تصوفهُ، دعوتهُ : الشيخ أحمد فريد المزيدي : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان : د – ط : د – ت : ١٧١ .

(١٢) ينظر : المرجع نفسه: ١٧٤.

(١٣) ينظر: التناص في شعر علي عقل: د. أمين إسماعيل توفيق بدران: جامعة الازهر – كلية اللغة العربية: د- ط: د- ت: ٤٨٦.

(١٤) ينظر: الحسن البصري إمام الزاهدين شخصيته، عقيدته، زهده، تصوفه، دعوته: الشيخ أحمد فريد المزيدي: ١٧٧.

(١٥) ينظر: الخطابة في عصرها الذهبي: إحسان النص: ٣٥٩، ٣٦٥.

(١٦) آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه: الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي: تحقيق: سليمان الحرش: دار التوادر- بيروت: الطبعة الثانية: ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م: ٧٣.

(١٧) نهج البلاغة: الشريف الرضي: شرح: الشيخ محمد عبده المفتي: دار المعرفة للطباعة والنشر: ٢: ٥٨، والنور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين: السيد نعمة الله الجزائري: قدم له وعلق عليه: علاء الدين الاعلمي: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- لبنان: الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م: ٣٧٨، ومستدرك سفينة البحار: الشيخ علي النمازي الشاهرودي: تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي: ٣٧٤.

(١٨) آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه: جمال الدين ابو الفرج الجوزي: ١٢٠، ١٢١.

(١٩) ينظر: الحسن البصري إمام الزهادين شخصيته، عقيدته، تصوفه، دعوته: ألشيخ أحمد فريد المزيدي: ١٧٠.

(٢٠) ينظر تطور الأدب الخطابي بين عصر صدر الإسلام وبين أميه: د- مي يوسف خليف: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة: د-ط : د-ت: ١١١.

(٢١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي: ٢: ٤٨٢، ٤٨٣.

(٢٢) الادب الراشدي والاموي رؤية ومنهج: محمود حسين الزهيري: دار الفكر: الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م:١١٤.

(٢٣) ينظر: خطبة واصل بن عطاء التي جانب فيها حرف الراء دراسة بلاغية: د- دسوقي عبد المعز محمد محمد: ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م: ١٥٧٦: بحث.

(٢٤) سورة النجم: ٤.

(٢٥) العقد الفريد: ابن عبد ربه الاندلسي: ٤: ١٥٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز: ابن الجوزي: ٢١٧، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة : أحمد زكي صفوت: ٢: ١٩١.

(٢٦) ينظر: أدب زُهاّد التابعين موضوعاته وفنونه: يونس هلال منديل صالح اللهيبي: دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان: د-ط: د-ت: ٤٣.

(٢٧) الطبقات الكبرى: محمد بن سعد منيع الهاشمي البصري المعروف بأبن سعد: دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا: ٥: ١٨٠، ١٨١، والبداية والنهاية: الحافظ ابن كثير الدمشقي: مكتبة المعارف- بيروت- لبنان: الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م: ٩: ٦٣، ٦٤.

* عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، القرشي، يكنى أبا عبد الله، وأبا عمرو، ولقبه ذو النورين، مشهور به حتى غدا ملازماً لاسمه، بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرون، وعاش في خلافته أثنتي عشرة سنة، حصر في منزله اياماً ثم دخلوا عليه فقتلوه يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة ويقال: لثماني عشرة خلت من سنة خمس وثلاثين، وأختلف في قاتله؟ دفن في البقيع، ينظر: السيرة النبوية: لابن هشام (٢١٣ أو ٢١٨هـ): علق عليها، وخرج أحاديثها، وصنع فهارسها: د- عمر عبد السلام تدمري: دار الكتاب العربي- بيروت: الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م: ٢: ١٩، ٣٢٢، وينظر: صفة الصفوة: للإمام جمال الدين ابي الفرج ابن الجوزي (٥١٠- ٥٩٧هـ): تحقيق: خالد مصطفى طرطوسي: دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان: د- ط: ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م: ١١١، ١١٤، وينظر: اعلام المسلمين عثمان بن عفان الحي السخي ذو النورين (٤٧ق- هـ- ٣٥هـ): عبد الستار الشيخ: دار القلم- دمشق: الطبعة الاولى: ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م: ٢١، ٢٢.

* زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك النجار بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، قدم النبي ﷺ وهو ابن إحدى عشرة سنة، أسلم وتعلّم الخطين العربي والعبراني، كان فطناً ذكياً، حفظ القرآن الكريم وأتقنه، وأحكم الفرائض، شهد الخندق وما بعدها، توفي بالمدينة سنة خمس وأربعين وهو ابن ست وخمسين سنة، وقيل مات سنة إحدى أو أثنتين وخمسين، وقيل مات سنة خمس وخمسين، وعن عمار بن عمار قال: لما مات زيد بن ثابت جلسنا الى ابن عباس في ظل قصر، فقال: هكذا ذهاب العلم، لقد ذهب اليوم علم كثير، ينظر: صفة الصفوة: الإمام جمال الدين ابي الفرج الجوزي (٥١٠- ٥٩٧هـ): ٢٥٥، وينظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين السخاوي (٨٣١- ٩٠٢هـ): عني بطبعه ونشره: سعد طرابزوني الحسيني: د- ط: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م: ٢: ٩٤، وينظر: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن: صفوان عدنان داوودي: دار القلم- دمشق: الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م: ١٥.

* صالح بن مسرح التميمي زعيم خوارج الصفرية وأول من خرج فيهم، كان كثير العبادة ناسكاً مخبتاً، مصفر الوجه وإلى صفرته ينسب الصفرية وصفرة الوجه هي سمة أصحابه، فقد اصفّرت وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم، كان يسكن مدينة (دارا) بالجزيرة دعاء أصحابه إلى الخروج على الظلم، فوافق أصحابه ووفد عليه شبيب الشيباني، وأصبح قائد جيشه،

اشتبك مع أمير الجزيرة مروان بن محمد الأموي في معارك، قتل فيها صالح وتولى زعامة الخوارج بعده شبيب بن يزيد الشيباني، ينظر: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي: ٣: ١٩٧، وينظر: أحداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين: د- عبد السلام الترمانيني: دار طلاس- دمشق: ١: ٥٥٦.

([٢٨])تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك: لابي جعفر محمد بن جرير الطبري: ٦: ٢١٦، ٢١٧، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة : أحمد زكي صفوت: ٢: ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢.

([٢٩]) ينظر: الخطابة في عصرها الذهبي: إحسان النص: ١٦٤، ١٦٥.

([٣٠]) ينظر: الخوارج تاريخهم وأدبهم: علي جفال: ٦٨.

([٣١]) ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف: دار المعارف- القاهرة: الطبعة العاشرة: ب-ت: ٨٥.

([٣٢]) ينظر: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت:٢: ٦،٢٩، ٤٤، ٤٥، ٥١، ٦٤، ١٩٤، ٢٤٠، ٣٠٠.